الفصل الثالث

بروج وجنت:
المدينتان الصناعيتان والتجاريتان في فلندرة
BRUGES AND GHENT: COMMERCIAL AND INDUSTRIAL CITIES OF FLANDERS

لم يكن الاقتصاد الفرنسي هو الوحيد الذي ازدهر بين القرنين العاشر والثالث عشر، ولم تكن فرنسا المنطقة الوحيدة التي انتشرت فيها الأسواق الموسمية. فالأراضي المنخفضة من فلندرة (وتقع الآن غرب بلجيكا بما يعرف اليوم بهولندا)، وبعد انحسار هجمات الفايكنغ، شهدت ازدهار الجانب العمراني حيث شرع السكان في الانتشار بعد أن كانوا فيما مضى يؤثرون الابتعاد عن المناطق الساحلية، وبعد أن عاد الأمان إلى الطرق البرية والبحرية عاد التجار إلى السفر براً من جديد.

لكن ديناميكيات تشكيل المدن في فلندرة كانت أكثر اختلافاً وتطوراً عما كانت عليه في وسط فرنسا. أما في شمبانيا، فقد أسهم موقعها واستقلالها السياسي في إيجاد ظروف مواتية، ولو بصفة مؤقتة، شجعت على إقامة المراكز التجارية، وهذه بدورها شجعت على تطور صناعة لم تفلح في تشكيل قاعدة اقتصادية أساساً، ولا في البقاء بعد موت الأسواق الموسمية. أما في فلندرة فالعكس هو الصحيح. فبعد بداية متواضعة في الريف توسعت الصناعة وأدت إلى زيادة التمدن وبالتالي إلى نمو الوظائف التجارية في المدينة بشكل مباشر.

وهناك مدينتان رئيستان في فلندرة كانتا في القرن الثالث عشر مثالين بارزين على هذه العمليات. أما المدينة الكبيرة فهي جنت Ghent (وتسمى "جان" Gand بالفرنسية)[١] التي كانت مع باريس أكثر مدن شمال أوروبا سكاناً.[٢] فمنذ أقدم العصور اعتمد اقتصاد جنت على إنتاج القماش الممتاز، مع أنها كانت تنقل الحبوب، وتستضيف سوقا موسمية أيضاً. زد على ذلك أن تطورها ارتبط بالطلب المتزايد على المنسوجات، وهذا ما وفر فرص العمل لثلث القوى العاملة أو نصفها في ذروة الإنتاج في القرن الثالث عشر وبداية الرابع عشر.[٣] أما المدينة الثانية التي قدر لها أن تلعب دوراً أساساً في التجارة العالمية والمال بشكل فاق حجمها الصغير (٤٠٠٠٠) فكانت بروج التي أطلق عليها هيبكه Haepke اسم "سوق العالم."[٤] ولما كانت بروج ميناء على بحر الشمال وعلى اتصال مع إنجلترا وألمانيا، فقد لعبت دوراً رئيساً بصفتها قاعدة انطلاق التجارة البحرية الإقليمية في بحر الشمال وبحر البلطيق. فمنذ القرن العاشر، أقدم التجار على شراء المواد الخام (ولاسيما الصوف من إنجلترا) وبيع الحديد والبرونز، وفي القرن الحادي عشر، القماش (المصنوع في بروج وبالأخص في المدينتين الصناعيتين إيبر Ypres وجنت) إلى زبائن في مناطق بعيدة مثل نوفغورود Novgorod وغرب فرنسا (دوهيرد Doehaerd ١٩٤٦م: ص ص ٣٨-٤٠). وبعد الانحطاط الذي حل بأسواق شمبانيا الموسمية، لم يعد للإيطاليين مكان يقابلون فيه نظراءهم لشراء القماش الفلمنكي. فبعد أن طوروا طريقهم البحري إلى بروج في أواخر القرن الثالث عشر وسّعت تلك المدينة مركزها التجاري والمالي ليصبح القوة المحركة لتطورها. ولم ينتقل هذا المركز إلى أنتويرب إلا بعد تراجع هذا المركز بسبب طغيان الطمي على هذين الميناءين الواحد تلو الآخر.

منشأ مدينتي جنت وبروج
The Origins of Ghent and Bruges

أدى سقوط الدولة في القرن الخامس إلى تناقص عدد السكان في المدن المرتبطة بالإمبراطورية الرومانية التي أصبحت بعد ذلك بلجيكا؛ ففي القرن السادس، كانت

المستوطنات الوحيدة الباقية هي التي ارتبطت بالمؤسسات الدينية (دوهيرد، ١٩٨٣م: ص ٣٣)[٥]. صحيح أنه ربما كانت هناك مستوطنات رومانية على مقربة من بروج وجنت (فيرهلست Verhulst، ١٩٧٧م: ص ١٧٨) لكن آثارها اندثرت بمرور الزمن، ثم بدأت المدينتان بالظهور ثانية، أو بجذب الانتباه في القرن التاسع حين عرفتا بوصفهما مستوطنتين يمكن الوصول إليهما بالقوارب ويتمتع سكانهما بحق ممارسة التجارة،[٦] وبوصفهما عاصمتين لوحدتين إداريتين في إمبراطورية شارلمان.[٧]

وفي نهاية القرن التاسع، منح تفكك إمبراطورية شارلمان قسطاً كبيراً من الاستقلال إلى مختلف الحكام المسيطرين على المناطق الصغيرة. وهكذا حصّن بولدوين الأول Baldwin I، كونت فلندرة، وخليفته بولدوين الثاني، مستوطناتهما ضد الفايكنغ؛ وبعد دحر الغزاة، تولى كلاهما إنعاش مدن فلندرة التي تابعت توسعها السريع في القرون التالية من النهضة الأوروبية. وفي تلك الأثناء أعيد بناء مدينة جنت (فان فير فيكه van Werveke ١٩٤٦م: ص ص ١٦-١٧)، وشيد حصن بروج الذي بنيت المدينة حوله (دوهيرد، ١٩٨٣م أ: ص ٤٠؛ فيرهلست، ١٩٦٠م؛ فان هوته van Houtte ١٩٦٧م: ص ١١). وتشير النقود التي سكت في أواخر القرن التاسع باسم الحصن في بروج (التفاصيل في ديكلو Duclos ١٩١٠م: ص ١٤) إلى أنها كانت بالفعل تتمتع بأهمية اقتصادية وتجارية. وقد تحقق هذا الوعد وأكثر بعد ذلك بقرن من الزمن حين أصبحت بروج العاصمة الإدارية لفلندرة (ديسوشوا Dusauchoit، ٩٧٨م : ص ٢٧).

وقد شهد القرن الحادي عشر وبالأخص القرن الثاني عشر تغيرات هائلة في هاتين المدينتين الصغيرتين اللتين كانتا حتى ذلك الحين تحت حماية قلاع الكونت وفي عام ١١٠٠م تقريباً، كانت الأسواق الدورية المشابهة لأسواق شمبانيا تعقد في هاتين المدينتين لمدة شهر واحد فقط، وتجتذب المشترين والبائعين من مراكز تجارية أقل تنوعاً. ومن المدن التي شهدت انعقاد هذه الأسواق الدورية إيبر Ypres وتورو Thorhout،

وليل، Lille ومسين Messines وسوق بروج القديم بعد أن ألحقت بالأسواق رسمياً عام ١٢٠٠م (مع أنها كانت تقام منذ عام ٩٥٨م)[٨]. ومما يذكر أن هذه الأسواق ارتبطت بتجارة المنسوجات، فهناك دليل على أن التجار الفلمنك في القرن الحادي عشر كانوا يشترون الصوف الإنجليزي من لندن، وكان الصوف الإنجليزي يباع في الأسواق الموسمية.[٩] أضف إلى ذلك، أن التجار الفلمنك كانوا يقطعون مسافات أطول بوصفهم عملاء تشكل الأقمشة سلعتهم الرئيسة. وقد جاءت هذه النشاطات نتيجة نمو صناعة النسيج التي لولاها لما كان لدى الفلمنك ما يبيعونه وبالتالي ما يشترونه أيضاً.

اكتسبت مدن النسيج في الشمال قدرا معينا من الاستقلال. وفي عام ١٠٠٢م أصبحت ليج Liege أول مدينة من مدن النسيج تحاط بالأسوار (جانشوف Ganshof ١٩٤٣م، : ص ٣٧). وبحلول نهاية القرن الحادي عشر، كانت جميع مدن النسيج الرئيسة قد شيدت أسوارا أو خنادق حول محيطها الآخذ بالتوسع.[١٠] لكن هذه المدن ما لبثت أن خرجت عن نطاق تحصيناتها وتجاوزت أسوارها. وفي القرن الثالث عشر، أقدمت "الطبقات العليا" (وهي تحالف بين النبلاء الفقراء والتجار أو الصناعيين الأغنياء) على عزل العمال الكادحين خارج أسوار إيبر وربما جنت أيضاً – لمنعهم من إثارة القلاقل.

وهكذا ارتبط التوسع في صناعة النسيج بقضايا التوسع المدني، وظهور بوادر بنية طبقية، وباستمرار تطور التجارة والشؤون المالية العالمية في فلندرة.

نشوء صناعة النسيج الفلمنكية

The Origins of The Flemish Textile Industry

من المؤكد أن الأديرة والمناطق الريفية من فلندرة كانت تصنع أقمشة عالية الجودة في القرن التاسع وربما قبل ذلك (إسبيناس Espinas ١٩٢٣م، ١، انظر الكتاب الثاني) مستفيدة من ظروف مواتية كثيرة، مع أنها لم تكن وقفا على فلندرة. ويقول

إسبيناس (١٩٢٣م، ١: ص ص ٢٥–٢٦) إن تآلف مجموعة فريدة من العوامل سهل نمو هذا التخصص ولاسيما في فلندرة: وهي وجود أراض ملائمة لتربية الغنم، وهي حرفة تقليدية قديمة (كان القماش الفلمنكي معروفا منذ العهد الروماني)، والموقع الممتاز بين القارة الأوروبية والبحر، والأهم من هذا وذاك، وجود كثافة سكانية عالية أجبرت السكان على الجمع بين الزراعة وصنوف الإنتاج الأخرى.[١١] ومنذ القرن العاشر، دأب التجار الفلمنك على القدوم إلى لندن لشراء الصوف وتصدير أقمشتهم إلى الأسواق الإنجليزية والإيرلندية (دوهيرد، ١٩٤٦م: ص ٣٨).[١٢] وما أن انتصف القرن الحادي عشر حتى بدأ إنتاج النسيج على قدم وساق خاصة بعد أن قدم القصّارون، والنساجون، والغزّالون إلى المدن المتخصصة في صناعة النسيج. وشهدت الحياكة ثورة في منتصف القرن الحادي عشر زادت إنتاجية العمال بمعدل ثلاثة إلى خمسة أضعاف نتيجة التحول من النول التقليدي الأفقي إلى النول العمودي الجديد (سيبولا Cipolla، ١٩٧٦م: ص ١٦٤).

في ذلك الوقت، كانت التجارة محلية إلى حد بعيد. أما شركاء تجار فلندرة الرئيسيون فكانوا على سواحل بحر الشمال وبحر البلطيق، على اعتبار أنه كان بوسعهم الوصول إلى هاتين المنطقتين بسفنهم الخاصة. ولما أشرف القرن الحادي عشر على نهايته كانت إيبر على سبيل المثال تصدر أقمشتها إلى نوفجورو Novgorod في الشرق، وإلى فرنسا التي كانت تعطيها النبيذ في المقابل، وإلى المدن الألمانية مثل كولونيا (دوهيرد، ١٩٤٦م: ص ٣٩). ومن الواضح أن إنتاجها كان ضخما حتى إن المدينة بدأت في عام ١١٠٠ تكتسب سمة صناعية، حسبما يقول فان فيرفيكه (١٩٥٥م: ص ٥٥٢).

ولا نعرف على وجه الدقة ما إذا كان إنتاج النسيج قد بدأ في مدن بعينها لأنها كانت مواقع للأسواق الموسمية أو لأن أماكن إنتاج الأقمشة كانت جذابة للأسواق. ومهما يكن الأمر، فقد كانت هناك قابلية للتآزر بين الوظيفتين؛ فالأسواق متطورة

مثلها مثل الأسواق في فرنسا، وقادرة تماماً على توليد طلب إضافي وعلى تلبية احتياجات الزبائن داخل البلاد وخارجها. أضف إلى ذلك، على حد تعبير فان هوت (١٩٥٣م: ص ٢٠٦)، أن:

> الأسواق البلجيكية الموسمية كانت مراكز لتحويل الأموال، حيث طورت أسواق فلندرة عمليات تحويل مهمة لسندات الأسواق التي لم تُلغ إلا في القرن الرابع عشر نتيجة للموجة الأولى من "طلينة" الحياة التجارية (أي جعلها إيطالية) وظهور الحوالات نتيجة ذلك.

لكنها لم تكن عالمية بما يكفي على اعتبار أن الطريق البحري بين البحر الأبيض المتوسط وبحر الشمال لم يكن معروفاً حتى ذلك الحين. فالاتصال مع جنوب أوروبا كان بحاجة إلى صلة وصل.

وهكذا شرع التجار والصناعيون في فلندرة بالقدوم إلى أسواق شمبانيا في أوائل القرن الثاني عشر. وفي منتصف ذلك القرن، بدأ التجار من عدد من المدن المعروفة بإنتاجها للنسيج في فلندرة يتخذون مخازن لهم في مدينتي تروي وبروفنس، مع أن مكان الصدارة آنذاك كان من نصيب تجار مدينتي أرا ودويه، وليس جنت أو إيبر.

لقد تعرّف الفلمنك، بفضل الحملات الصليبية للنبلاء والفرسان على كل البضائع المرغوبة التي يمكنهم مبادلة أقمشتهم بها فيما لو صدروها إلى الشرق بدلاً من المناطق المتخلفة في الشمال. وتبين أن التجار الإيطاليين في أسواق شمبانيا هم الوسطاء الذين أخرجوا المنسوجات الفلمنكية إلى أسواق أوسع. فالقماش الذي وصل بكميات كبيرة إلى جنوة في منتصف القرن الثاني عشر (لوران ١٩٥٣م: ص ص ٥٤-٥٦-٦٤) كان يشحن إلى بلاد الشام، حيث تساعد قيمته في موازنة العجز في المدفوعات الذي كانت أوروبا تسدده من قبل بشحن الذهب والفضة (دوهيرد، ١٩٤٦م: ص ٤٣).

واستمرت هذه الترتيبات حتى العقود الأخيرة من القرن الثالث عشر تقريباً، حين تعرضت للاضطراب بسبب العوامل السياسية والقلاقل العمالية، ثم أعيد ترتيبها

جذرياً من خلال طاقات الشحن الجديدة. أما التأثيرات فكانت معقدة. أولاً، وجود فجوة متنامية بين مدن الإنتاج مثل جنت وبروج العاصمة المالية والتجارية. ثانياً، نشوب صراعات سياسية داخلية مثلت تحدياً لسلطة النخبة التي تشكلت من التحالف بين الحاكم (الكونت) وطبقة النبلاء poorter class، والتي كانت تستبدل الظلم المنظم بتناحر التعددية الحزبية الفوضوية؛ وأخيراً تفاقم الصراعات السياسية الخارجية، واتخاذها بعداً ثلاثياً بين فرنسا وإنجلترا والمواطنين المحليين المطالبين بالاستقلال. وحين أشرف القرن الثالث عشر على نهايته، منع الصراع بين كونت فلندرة وملك فرنسا، الذي كان قد ضم لتوه مقاطعتي شمبانيا وبري إلى مملكته، بيع القماش الفلمنكي إلى الإيطاليين في أسواق شمبانيا. وقد زاد هذا من حماسة التجار الإيطاليين لكي يوسعوا طريقهم البحرية إلى بروج، خاصة بعد أن غدوا قادرين على ذلك مؤخراً بفضل سفينة جديدة كبيرة الحجم.

صحيح أن النقل البحري الإيطالي جعل من بروج ميناء عالمياً من الطراز الأول، لكن كانت هناك العديد من التطورات والمفارقات الغريبة في هذه الأهمية حديثة العهد. فما إن وصل التجار والمصرفيون الإيطاليون وأقاموا مستعمراتهم الدائمة في بروج حتى بدأوا يحلون تدريجياً محل التجار المحليين الذين تراجعوا إلى مجرد حاشية ضرورية فيما يخص التجارة العالمية (وهذا مشابه لمفهوم *الكومبرادور comprador* — أي المستشار — الذي برز فيما بعد). ثانياً، أصبح تدهور الميناء أمراً لا مفر منه مثلما اكتسب أهمية متزايدة في نجاح المدينة على الصعيد الاقتصادي. فانسداد الميناء أدى من قبل إلى تطوير ميناء دام Damme القريب الذي بني عام ١١٨٠م بعد تعذر الوصول إلى بروج. لكن حتى ذلك الميناء لم يعد قادرا في أواخر القرن الثالث عشر على استقبال السفن ذات الغاطس العميق. وهكذا لم يكن هناك بد من افتتاح ميناء جديد وبعيد في سلوس Sluis في عام ١٢٩٠م (للمزيد من التفاصيل راجع فان هوت، ١٩٦٦م: ص ص ٢٥١ — ٢٥٢،

٢٦٣ – ١٦٤). ومن المفارقات أن الرمال سدت مدخل المدينة بعد أن باتت السفن قادرة على الإبحار من البحر الأبيض المتوسط إلى بحر الشمال، وبعد أن أصبح هذا الخط البحري طريقاً رئيسة. وقد أدت هذه الحال إلى نقل أعمال الميناء إلى أنتويرب Antwerp (فان فيرفيكه، ١٩٤٤م)، بصرف النظر عن عوامل أخرى كانت وراء هذا الانتقال. لكن دعونا نعد إلى الخلف قليلاً لنبحث في هذه التغيرات بمزيد من التفصيل.

ذروة المنسوجات (جنت)

والتحول إلى التجارة (بروج)

The Height of Textiles (Ghent) and the Shift to Commerce (Bruges)

على الرغم من أن توطد دعائم التجارة مع المدن الإيطالية، وبالأخص جنوة، في الربع الأخير من القرن الثاني عشر (دوهيرد، ١٩٤١م: الفصل الأول) أدى إلى تغيرات داخلية جمة في المدن الفلمنكية في الربع الأول من القرن الثالث عشر، فإن فلندرة لم تبلغ ذروة أهميتها بالنسبة إلى النظام العالمي ما قبل الحديث إلا في عام ١٢٥٠م، وربما ١٣٢٠م. وقد تضاعف إنتاج المنسوجات مع تضاعف الطلب عليها في أوروبا والبحر الأبيض المتوسط. وفي ١٢٣٤م كانت المنسوجات الفلمنكية تصل بلاد الشام، "وفي عشية حافلة بالنشاط، وهي عشية سفر سان لويس St. Louis من مرسيليا إلى سورية في ١ أبريل ١٤٢٨م، أبرمت مئات العقود التي ذكرت فيها المنسوجات من دويه، وأرا، وإيبر" (لوران، ١٩٣٥م: ص ٦٦). في تلك الفترة، لم تكن جنوة وحدها الضالعة في إعادة شحن البضائع نحو الشرق، بل مدن كثيرة أخرى غيرها.[١٣] وكان إنتاج المصانع الفلمنكية من الضخامة آنئذ بحيث جعل لوران يؤكد أنه شكل ثورة صناعية حقيقية على غرار ما حدث في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، ولو على نطاق أصغر (لوران، ١٩٣٥م: xii).

لقد كانت ثورة صناعية من ناحية (ولو أنها تستعمل تقنيات بدائية من الأشغال اليدوية في بروكسيل) وثورة رأسمالية من ناحية أخرى على اعتبار أن النظام الطبقي الوليد الذي برز إلى العلن يتجه نحو النوع المقترن بالعصر الحديث أكثر من اقترانه بقيود النظام الإقطاعي العديدة. فطبقة النبلاء كانت في طرف[١٤] وعمال النسيج في طرف آخر (أي القصارون، والغزالون وعمال الحياكة الذين لم يكن لديهم ما يبيعونه سوى العمل). (ومن اللافت أن التقارير عن الصراع العمالي في ذلك الوقت تهمل ذكر الغزالات من النساء تماماً).

وكما كانت الحال في مانشستر في القرن التاسع عشر، فإننا نجد فصلاً فعلياً وتمييزاً قضائياً بين المجموعتين. فأهل النخبة كانوا يسكنون المدن القديمة (أي المستوطنات الأصلية المسورة) في مساكن كالقصور شيدت على نمط الحصون، أما العمال فتراجعوا إلى أطراف المدن حيث كانت مصانعهم. ويقول فان فيرفيكه (١٩٥٥م: ص ٥٥٩) إن العمال في جنت كانوا يسكنون وراء أبعد أسوارها. ومع أن بروج، التي تمكنت من شراء مساحات واسعة من الأراضي حول المدينة القديمة بعد أن ضاقت عنها حدودها، وسعت أسوارها مرات عدة حتى أصبحوا داخلها. وباستثناء النخبة، لم يكن لأحد الحق في امتلاك الأرض ملكية حرة، ولا في المثول أمام قاض مدني سوى المواطنين. أما العمال فلم يكن لهم الحق لا في شراء الأراضي ولا في الحصول على العدالة المدنية، وقد كانت هذه من المسائل الحيوية في العصور الوسطى.

بالإضافة إلى ما تقدم، كان يحق للنخبة إصدار تشريعات وقوانين تحقق لهم مصالحهم الذاتية. "فالقوانين التي يفرضونها على صناعة النسيج تأتي لصالح تاجر القماش بصفة عامة، إذ عارض النبلاء بكل قواهم قيام تجارة مستقلة." (فان فيرفيكه، ١٩٥٥م: ص ٥٦٢). ففي مدينة جنت، كانت هناك شرذمة من تسعة وثلاثين شخصاً تتداول مراكز السلطة التشريعية الثلاثة عشر فيما بينها كل ثلاث سنوات (ليستوكوي

١٩٥٢ أ، وأماكن أخرى) وتشكل الكيان المستقل الذي حاز على إعجاب ماكس ويبر. وفي عام ١٢٩٧م، حين خرج جي دي دامبير Guy de Dampierre على ملك فرنسا وأطاح بشرذمة التسعة والثلاثين في جنت، عين محلهم تسعة وثلاثين آخرين من طبقة النبلاء (فان فيرفيكه، ١٩٤٦م: ص ٣٥). وعلى غرار الحال في إنجلترا في القرن التاسع عشر، كانت هناك حالات زواج كثيرة بين كلا الطائفتين، أي بين أولاد النبلاء الذين لا أراضي لديهم، والبنات الثريات من كبار الأسر البرجوازية (فان فيرفيكه، ١٩٤٦م: ص ٥٧ ؛ بلوكمانز Blockmans، ١٩٨٣م: ص ٦٧)، مما عزز التحالف بين الإقطاع ورأس المال في المدن.

أما الفقراء فلم يعدموا مواردهم الخاصة، إذ خاضوا العديد من الثورات بهدف حماية حقوقهم، وهذا ما حدث في فلانسين Valenciennes عام ١٢٢٥م، ودويه عام ١٢٤٥م، وجنت عامي ١٢٥٢م، و١٢٧٤م (بلوكمانز، ١٩٨٣م: ص ص٦٧-٦٨). وفي عام ١٢٨٠م خرج العمال إلى الشوارع في كل مدينة من مدن النسيج في فلندرة، (بما فيها جنت وبروج) احتجاجا على ظروفهم،[١٥] لدرجة أنهم أقحموا في الصراع على السلطة الذي نشب عام ١٣٠٢م بين الفرنسيين والإنجليز سواء فيما بينهم أو طمعاً في السيطرة على فلندرة. في ذلك الحين، كان النبلاء الفلمنك متحالفين مع ملك فرنسا والبرجوازية المحلية من خلال التزاوج بحيث لم يكن أمام العمال من وسيلة للإطاحة بهم سوى الانحياز إلى جانب الغزاة الإنجليز الذين تمكنوا بمساعدة ميليشيات العمال من دحر الفرنسيين في معركة كورتريه Courtrai الشهيرة التي لم تغير نظام الحكم في المدن الفلمنكية وحسب، بل غيرت أيضا نتائج السياسة الدولية.

لكن التحول الاجتماعي في المدن الفلمنكية لم يكتسب قوة كافية للنيل من نفوذ الطبقة الأرستقراطية إلى أن آلت الأمور إلى جاك فان آرتفلده Jacques van Artevelde (١٣٣٨-١٣٤٥م) لكن بعد فوات الآوان (فان فيرفيكه، ١٩٤٣م ؛ لكن راجع نيكولاس،

١٩٨٨م، للاطلاع على رأي آخر). كانت صناعة النسيج في حالة انحدار إذ إن المنتجين الآخرين، ولاسيما الإنجليز، كانوا قد كسروا الاحتكار الفلمنكي. وفي فترة إعادة البناء التي تلت، لم تعد الحركات العمالية تكافح في سبيل الحرية، بل في سبيل الحد من منافسة القصارين وعمال الحياكة من أهل الريف غير المسجلين في النقابة للحصول على نصيب من السوق المنكمشة.(١٦)

ويعزو بعضهم قسطاً من المصاعب الاقتصادية التي حلت بصناعة النسيج الفلمنكية إلى الحاجة إلى تكديس كميات كبيرة من الصوف الإنجليزي الممتاز والمستورد بعد توسع الصناعة، الذي لا يمكن بدونه إنتاج القماش الممتاز الذي اشتهرت به فلندرة. فهذا الاعتماد الذي بدأ في أوائل القرن الثاني عشر، أصبح أشد وضوحا في القرن الثالث عشر، مما جعل العمال يخضعون لسلطة التجار بصفتهم الضامنين لاستمرار تدفق الصوف المهم. فمنذ أوائل العصور الوسطى، أخذ التجار الفلمنك يسافرون إلى لندن واسكتلندا لشراء الصوف الإنجليزي عالي الجودة. وفي مطلع القرن الثالث عشر انتظم هؤلاء التجار في مجلس لندن The House of London، وهو مجموعة من المشترين تجمعوا بهدف الحصول على ميزات متساوية من الحاكم الإنجليزي وتحديد الأسعار (بيرين Pirenne، ١٨٩٩م).

لكن المعارك السياسية بين فرنسا وإنجلترا غالبا ما تركت أثرها في اقتصاد فلندرة؛ فقد كان حظر تصدير الصوف الإنجليزي إلى فلندرة سلاحاً متكرراً في الصراع. كما كانت بعض الدوافع وراء تحالف جي دي دامبير وعمال النسيج، وأخيراً جاك فان آرتيفلده مع إنجلترا ذات طابع اقتصادي. وفي كل مرة تنحاز فيها مدينة فلمنكية إلى صف إنجلترا كانت تمنح الأفضلية في التعامل في سوق الصوف. وحتى حين كسبت إنجلترا احتكار بيع صوفها من خلال إقامة مراكز خاصة ببيع الصوف في القارة الأوروبية، ضَمِن لها الدعم الذي قدمته بروج إقامة المركز فيها بين وقت وآخر على الأقل.

ورغم ذلك كله، ما كان بالإمكان تجنب اختفاء الصوف الإنجليزي في آخر الأمر من المغازل والأنوال الإنجليزية. فقد كان تطوير صناعة النسيج في إنجلترا قبل أي شيء آخر هو الذي أنهى احتكار الفلمنك لهذه الصناعة. فمع ازدياد كميات الصوف المستهلكة في البلاد، قل تصديره. ولما شحت كميات الصوف الممتاز في فلندرة، تضاءلت جاذبية إنتاجها. وقد استورد التجار صوفاً أقل جودة من إسبانيا، لكن القماش المصنوع منه كان خشن الملمس، كثير التجاعيد.

وبالنظر إلى ما تقدم، يسهل على المرء فهم الأسباب التي حملت عمال النسيج في فترة الانحدار تلك على الاهتمام بحماية أنفسهم من منافسة الريف. كانت أجور عمال المدن مرتفعة؛ وبما أن القماش الرديء أدى إلى انخفاض أسعاره، لجأ الرأسماليون إلى تخفيض التكاليف بنقل عملهم إلى الريف حيث الأجور أقل. أما النقابات الحرفية فردت بالمطالبة "بالورشة المغلقة"[١٧] لكن هذه الجهود ذهبت أدراج الرياح. وقد هاجر بعض العمال المهرة إلى إنجلترا بحثا عن العمل، وتوجه بعضهم إلى إيطاليا (دوهيرد، ١٩٤٦م: ص ص ٩٩-١٠٥)، لكن غالبيتهم آثرت البقاء في الوطن انتظاراً لتحسن الظروف. وقد تحسنت الظروف بالفعل لفترة وجيزة في أواخر القرن الرابع عشر، بعد أن أزهق الطاعون أرواح عدد كبير منهم، وأدت ندرة اليد العاملة إلى رفع مكانة السوق وبالتالي إلى تحسين ظروف العمل. لكن العصر الذهبي لصناعة النسيج الفلمنكية ولى إلى غير رجعة.

وقبل انقضاء العصر الذهبي للنسيج في فلندرة، احتلت بروج مركزاً متقدماً بين مدن العالم، فلم تكن تعتمد بصورة مباشرة على صناعة النسيج مثلما كانت بقية المدن الفلمنكية مثل إيبر وجنت. ومنذ البداية استبدلت بروج دورها في الإنتاج بالتجارة ونشاطات الميناء، وأصبحت صلة الوصل بين الموردين والأسواق في الخارج ومراكز الإنتاج القريبة. وقد تعزز هذا الدور إلى حد بعيد في أواخر القرن الثالث عشر حين أقام

التجار من دول المدن الإيطالية اتصالاتهم مباشرة مع بروج التي كانت مستعدة للعمل في بيع القماش بدلا من العمل من خلال الوسطاء في أسواق شمبانيا.

في عام ١٢٧٧م عبر تجار جنوة للمرة الأولى على متن سفنهم الجديدة الضخمة مضيق جبل طارق متجهين شمالاً على امتداد سواحل البرتغال وفرنسا ومن ثم إلى بحر الشمال، وألقوا مراسيهم في دام، ووصلوا من خلال قناة قصيرة إلى بروج، وبقناة أطول قليلاً إلى جنت. ولكن لم تكن هناك خدمة منتظمة بين الميناءين. وكلما تدهورت الأوضاع في شمبانيا زادت جاذبية الوصلة البحرية البديلة. وفي مطلع عام ١٢٩٠م، وما إن بني ميناء سلوز Sluis حتى أقيمت خدمة منتظمة بين جنوة وبروج سمحت للطرفين بتجاوز أسواق شمبانيا، عند الضرورة على الأقل. أما البندقية فتأخرت في اللحاق بهما، لكنها اضطرت هي الأخرى في عام ١٣١٤م، إلى استبدال الطريق المألوف إلى بروج عبر جبال الألب وألمانيا إلى البلاد المنخفضة بخدمة السفن. ولم يكن بوسعها التأخر، لأن بروج كانت في ذلك الوقت أهم الأسواق الأوروبية شمال الألب (فان هوت، ١٩٦٦م: ص ٢٥٣؛ ١٩٦٧م: ص ٥١). وبحلول عام ١٢٩٢م، حين أقام الإنجليز مراكز الصوف التابعة لهم في أوروبا، أصبحت بروج أيضا المكان الذي يقصده التجار لشراء أصوافهم.

بروج والممولون الأجانب
Bruges and Foreign Financiers

أدى الدفع بمدينة بروج إلى السوق العالمية إلى تغيير قاعدتها الاقتصادية التي كانت قائمة منذ القدم. ففي الماضي كان تجارها الملاحون يسافرون للبيع والشراء، لكنهم الآن اضطروا إلى المكوث في ديارهم بانتظار الزبائن. فبالإضافة إلى الألمان الذين بدأوا يتوافدون بكثرة بعد تنظيم اتحادهم،[١٨] والإسبان، وبالأخص القشتاليين، الذين بقيت أعدادهم قليلة رغم أنهم وصلوا منذ بداية القرن الثالث عشر، كان هناك الإيطاليون

الذين غيروا دور بروج الاقتصادي بالفعل من مركز للاستيراد والتصدير والإنتاج إلى مخزن حقيقي، لا للبضائع وحسب، بل للمال أيضاً. فحين تدهورت أوضاع النسيج، استمرت بروج في لعب دور البورصة الأوروبية.[١٩]

وعلى النقيض من مدن الأسواق الموسمية، لم يأت الإيطاليون بوصفهم مجرد زوار موسميين، بل بوصفهم تجاراً دائمين. وسرعان ما تسلموا وظائف السوق الدولية بالإضافة إلى دورهم المحلي في بيع القماش الفلمنكي. وكما ذكر دي روفر فإن "الطبقة العليا من المواطنين في بروج لم تكن في القرنين الرابع عشر والخامس عشر مؤلفة من التجار إلا فيما ندر، بل من العمال، وأصحاب الفنادق، وباعة الأقمشة، ووكلاء العمولة". (١٩٤٨م: ص ١٣). ولم تتأسس هذه المهن لخدمة اقتصادهم بل لخدمة الإيطاليين (وربما ظن بعضهم لمحاولة الإشراف عليهم). ولم يمنع الإيطاليين من الاستيلاء على كامل العمليات التجارية في المدينة إلا القانون الذي حظر على الأجانب ممارسة تجارة التجزئة وشراء البضائع المحلية بهدف إعادة بيعها في المدينة (دي روفر، ١٩٤٨م: ص ١٦)، ومنعهم على الأقل حتى نهاية القرن، من التعامل مباشرة مع الباعة والمشترين المحليين (فان فيرفيكه، ١٩٤٤م: ص ص ٣٢-٣٣).

فرضت قيود على التجار الإيطاليين، وبالأخص فيما يتعلق بتجارة الأقمشة التي كانت المنتج الرئيس حتى ذلك الوقت. وبحسب رواية إسبيناس كان لابد من مرور كل القماش المعد للتصدير والمنتج في فلندرة عبر الوسطاء المحليين أو العملاء التجاريين (كورتير) الذين كانوا شبه موظفين يعملون لصالح التجار الأجانب ويسهرون على تحقيق صورة بدائية من العدالة. ويشبه هؤلاء حراس الأسواق الموسمية إلى حد يدعو إلى الريبة. أما العملاء فكانوا بدورهم يستأجرون الكتبة ليعملوا لديهم في حفظ السجلات الرسمية الخاصة بالتعاملات، والعتالين، والقبانين، والكيالين لأنهم يتحملون مسؤولية التبادلات الأمنية. وكان لكل أولئك الوسطاء صفة رسمية لأنهم معينون من

قبل سلطات المدينة (إسبيناس، ١٩٢٣م: ص ص ٣٠٥ – ٣٢١). هذا بالإضافة إلى أناس محليين لعبوا دوراً غير رسمي في التجارة.

كانت أسرة فاندر بورس vander Beurse العريقة في مهنة الفنادق، والتي أعطت اسمها لساحة البورصة Place de la Bourse هي الأشهر من بين أسر عدة. فحين يصل تاجر إلى بروج كان عليه العثور على مأوى له ولبضاعته. وعلى غرار الخانات التي انتشرت في مدن العالم الإسلامي وواحاته كانت في بروج مرافق تؤمن للتاجر مكانا لنومه، وتناول وجباته، وإيداع متاعه، ومكانا لخيله في الإسطبل (فان فيرفيكه، ١٩٤٤م: ص ٣٣). كما كان باستطاعته أن يودع أمواله (في مرحلة لاحقة) وأن يستبدلها بعملة أخرى (انظر دي رفر، ١٩٤٨م). وربما كان من الطبيعي أن يقوم صاحب الفندق أو معاونوه بإرشاد الغريب في المدينة ومساعدته في إبرام عقود التجارة. ويبدو أن الألمان على وجه الخصوص هم الذين كانوا يستفيدون من هذه المرافق.

أما الإيطاليون الذين جاؤوا فيما بعد، فإن كثرة عددهم حالت دون إيوائهم في هذه المرافق، ونظرا لطول فترة إقامتهم فقد فضلوا إقامة خاناتهم الخاصة. وحول هذا الموضوع يقول روفر:

> ما إن رسخ الإيطاليون وجودهم في فلندرة حتى بدؤوا في تنظيم "جمعيات" أو مستعمرات تضم جميع التجار القادمين من مدينة بعينها .... جمعية جنوة، والبندقية، ولوتشيزه، وفلورنسا ... وميلانو .... وكان من أولى مهمات الجمعيات حديثة التكوين الحصول على اعتراف رسمي بجمعيتهم والحصول على الميزات التجارية من السلطات المحلية (دي روفر، ١٩٤٨م: ص ١٣).

لقد وفرت لهم هذه الميزات الحماية من مصادرة ممتلكاتهم بصورة عشوائية، وأسهمت في تحديد رسوم الموانئ المستحقة، كما وفرت لهم الحماية من قانون الإقطاع. من هنا نرى أن التجار المنعزلين لم يكونوا سوى حالات استثنائية. "فالمواثيق التي منحت للتجار الإيطاليين كانت بالفعل ... معاهدات تجارية" يتفق عليها بين دول المدن وتتخذ صفة "وثائق دبلوماسية" حقيقية (دي روفر، ١٩٤٨م: ص ١٦).

ولم تكن الجمعيات أو المستعمرات الأجنبية مجرد تجمعات غير رسمية من أبناء بلد واحد يتبادلون مشاعر الود؛ بل كانت منشآت بالغة التنظيم، مثلها مثل النقابات، لكل منها رئيسها الخاص وقوانينها ووسائل تنفيذها (دي روفر، ١٩٤٨م: ص ١٧؛ فان هوت، ١٩٦٧م: ص ص ٥٥–٥٦).[٢٠] وعلى غرار الحالة التي سادت في إنجلترا في العصور الوسطى، والتي أبدع في وصفها لويد Lloyd (١٩٨٢م) والحالة التي سادت في الإمبرطورية العثمانية بعد ذلك تحت اتفاقيات الاستسلام، شكلت المستعمرات الأجنبية سلطة لا تخضع لقوانين الدولة المضيفة، ومعفاة من الرسوم الجمركية للبلد المضيف، شريطة الحفاظ على انضباط أعضائها (دي روفر، ١٩٤٨م: ص ٢٨). وحين أشرفت العصور الوسطى على نهايتها، كان هناك حوالي ١٦ "جمعية" في مدينة بروج وهي: الألمان (ويسمون الشرقيون) والبنادقة واللوتشيون، والجنويون، والفلورنسيون، وتجار ميلان–كومو، والبلاستتين، والبيزيون والكتلان، والأرجوان، والقشتاليون (ويسمون الأسبان)، والباسك، والهنغاريون، والبرتغاليون، والإنجليز، والاسكتلنديون. وبصفة عامة كان التجار من مختلف الجمعيات يفضلون العيش في شارع أو مكان واحد بحيث يشكلون حيا خاصا بهم ويقيمون مجالسهم الوطنية أو قنصلياتهم (ماريشال Marechal، بدون تاريخ : ص ص ١٥٣–١٥٥). كان العزاب يتناولون طعامهم معا، ويتبادلون الزيارات، وكانت بيوتهم هي في الغالب مكاتبهم.

على النقيض من المجالس التي تديرها المدن التجارية المشتركة في أسواق شامبانيا، كانت المنشآت وأعضاؤها دائمين في هذه المجالس التي تديرها "الجمعيات" المختلفة في بروج، ومع أن كثيراً من الإيطاليين نأوا بأنفسهم عن السكان المحليين، إلا أن بعضهم استقر في المدينة وتزوج من سكانها. واليوم هناك عدد من الأسر في بروج يستدل من اسمها على أنها تنحدر من أصل إيطالي. كما كانت لغة التجارة مطعمة كثيرا بالإيطالية، مثلما كان كثير من المعاونين والمستشارين في الشؤون المالية لدى طبقة النبلاء المحليين من

الإيطاليين. ولا شيء يصور لنا بالفعل وبهذه الدقة الفارق الحقيقي بين السوق الدورية والسوق المدنية مثل هذه الحقائق المعقدة. فكيف حدث هذا التحول؟

خضع تنظيم التجارة في إيطاليا إلى تحولات كبيرة في القرن الثالث عشر. فقد آثر كبار المساهمين في الشركات الإيطالية البقاء في ديارهم وترك إدارة مكاتبهم إلى وكلائهم في الخارج بدلاً من أن يتجشموا عناء السفر بأنفسهم. وكان الوكلاء مجرد مديرين ومعاونين يتقاضون الرواتب، ولم يكونوا شركاء في الشركة (دي روفر، ١٩٤٨م: ص ٣٢).[٢١] لقد كان هذا التطور في إدارة الأعمال ضخماً جداً حتى إن روفر وصفه بأنه ثورة تجارية تمخضت عن نتيجة دائمة ... مهدت الطريق أمام قدوم الرأسمالية التجارية التي لم تحل محلها الرأسمالية الصناعية في معظم الدول الأوربية قبل منصف القرن التاسع عشر" (١٩٤٨م: ص ١١).

ولم تكن هذه الشركات كبيرة الحجم. ففي مطلع القرن الرابع عشر، كان لثالث أكبر شركة فلورنسية من حيث الحجم "خمسة عشر فرعاً، وكانت تستخدم واحداً وأربعين وكيلاً، عدا المكتب الرئيس" (دي روفر، ١٩٤٨م: ص ٣٩)، لكن هذا الحجم كان بحاجة إلى إدارة حكيمة وحسابات دقيقة وكافياً لجمع رؤوس الأموال وتحويلها، كما تفعل الشركات متعددة الجنسيات اليوم، من الاستثمارات غير المربحة إلى المربحة، ومن الأماكن غير الواعدة، إلى الأماكن التي تبشر بعائدات عالية، فقدرة رأس المال على الحركة كانت بحاجة إلى سوق مالية متطورة.

أما الأمر الثاني الذي تغير فهو أن أهمية التجارة في المال والائتمان أصبحت مثل أهمية التجارة في البضائع (فان فيرفيكه ١٩٤٤م: ص ٤٣). وفي هذا الجانب من التجارة بالذات اكتسبت بروج أهميتها الحقيقية في السوق العالمية. وهنا أيضا نجد أن مسؤولية هذا التغيير تقع على عاتق الإيطاليين. صحيح أن معاملات الرهن وصرافة النقود في المدينة وجدت قبل مجيئهم، لكن الأعمال المالية والمصرفية العالمية لم تكن

متطورة. فإذا أراد النبلاء الفلمنك أو التجار اقتراض مبالغ كبيرة أو إرسال الأموال أو تسلمها من الخارج كان عليهم السفر إلى شمبانيا. لكن هذا تغير مع نهاية القرن الثالث عشر إذ لم تعد هناك حاجة إلى سفرهم.

كان اليهود، ومن بعدهم اللمبارديون والكاهورسيون بالدرجة الأولى، يقرضون المال (٣٠-٤٠ ٪ سنوياً) إلى النبلاء والبورجوازيين على حد سواء بفوائد فاحشة. وعلى اعتبار أن الدين يحرم الربا، فقد كان هؤلاء يتعرضون للاضطهاد أحياناً، لكنهم في الغالب كانوا مقبولين في المجتمع نظراً لحاجة الناس إلى خدماتهم، وكانوا دائماً تحت السيطرة من خلال التصاريح التي تكلفهم مبالغ طائلة.

وعلى نقيض المرابين، كان الصرافون مواطنين محليين يحترمهم الجميع، ويشترط أن يكونوا مواطنين في المدينة. وتطغى الأسماء الفلمنكية على لوائح الصرافين في بروج في القرن الرابع عشر (دي روفر، ١٩٤٨م: ص ص ١٧١-١٧٢). ومن اللافت أنه كان يسمح للنساء بممارسة أعمال الصرافة.

> في القرون الوسطى، كانت صرافة النقود من الأعمال القليلة التي تتمتع فيها النساء بالمساواة مع الرجال. وفي هذا المجال، كانت الشروط المطبقة في بروج هي ذاتها المطبقة في جنت وفي أماكن أخرى أوروبا الغربية — وهناك أسماء ست نسوة على الأقل في لائحة ضمت أحد عشر صرافاً ... كن يمارسن العمل في ١٣٦٨م في فرانكفورت أون — ذي — ماين (دي روفر ، ١٩٤٨م: ص ١٧٤).

كان عدد الصرافين محدوداً جداً، والناس يتوارثون التصاريح بممارسة المهنة. وربما يفسر هذا سبب السماح للنساء، وكثير منهن أرامل، بممارسة هذه المهنة. ففي بروج، لم يكن هناك سوى أربعة صرافين يحملون تصاريح من حاكم فلندرة باحتكار المهنة. وظلت نشاطاتهم خاضعة للتنظيم الدقيق حتى بعد عام ١٣٠٠م، حين تزايد عدد الصرافين بسبب توسع الأعمال، وكانت جميع المنصات ملكا لبلدية بروج (دي روفر ١٩٤٨م: ص ص١٧٤-١٧٥). ومع أن الصرافين كانوا في نهاية الأمر يقومون بوظائف الإيداع في البنوك، ويسكون العملة والسبائك ويتاجرون بها، ويقبلون

الودائع القابلة للدفع حين الطلب، ويرتبون إجراءات تحويل الأموال بين مودعيهم، ويعيدون استثمار الأموال المودعة في أمانتهم (إما بصورة مباشرة أو غير مباشرة من خلال تقديم القروض) إلا أن نشاطاتهم لم ترق إلى مستوى التجارة العالمية (دي روفر، ١٩٤٨م: ص ٢٣٨).

لقد تركت هذه المهمة إلى التجار والمصرفيين الإيطاليين الذين احتكروا عمليات صرافة الأموال والائتمان الدولية. ويؤكد دي روفر أنه على النقيض من نظرية بيجود Bigwood (١٩٢١م) التي تقول إن النشاط المصرفي نشأ من إقراض الأموال في البلدان المنخفضة، فإن لكل منهما أصله المنفصل. فالنشاط المصرفي الحقيقي دخل إلى بروج بشكله المتقدم عن طريق التجار والمصرفيين الإيطاليين الذين كان نظامهم يسبق نظام فلندرة بقرنين من الزمن على الأقل. وبسبب هذا الفارق، أصبحت سيطرة الإيطاليين السريعة على السوق المالية أمراً لا جدال فيه. أما إسهامهم الرئيس فهو الحوالة، وهي في الأصل عقد يحكم التسديد في وقت لاحق وفي مكان آخر. وقد تطورت الحوالة من عقد بدائي آخر ألا وهو عقد التبادل.

ويعود تاريخ أحد أقدم عقود التبادل التي تذكر بروج إلى عام ١٣٠٦م؛ وهو صك موثق يقر بتسليم مبالغ "وهمية" ويوافق على تسديد ما يعادلها في سوق بروفنس التي تعقد في مايو القادم. وهذه ليست حوالة حقيقية لأنها اتفاقية بين طرفين لا ثلاثة أطراف (دي روفر، ١٩٤٨م: ص ٤٩، لكن بناء على دوهيرد، ١٩٤١م). في ذلك الوقت كان هناك نوعان من عقود التبادل، كلاهما يحتاج إلى وجود طرفين متعاقدين أمام الكاتب بالعدل وهما *الكامبيوم cambium* أو العقد العادي، *والكامبيوم نوتيكوم cambium nauticum* أو العقد البحري الذي ينص على أن استحقاق الدفع مرهون بوصول البضاعة بسلام. لكن ما إن بدأ الإيطاليون بلزوم ديارهم، حتى مست الحاج إلى أداة أكثر تعقيداً. فقد دخل في الاتفاق طرف ثالث، وهو الوكيل الذي يؤمر بدفع

مبلغ معين لشخص آخر. من هنا نشأت ضرورة الحوالة، ففي مطلع القرن الرابع عشر بدأت هذه الطريقة الجديدة تحل محل العقد العادي، وشيئاً فشيئاً، ألغى التأمين البحري الحاجة إلى العقد البحري في وقت لاحق من ذلك القرن. أما الحوالة فهي في الأصل وثيقة يتفق فيها البائع والمشتري على أن يكون الدفع في مكان غير مكان تسليم البضاعة وبالعملة المتداولة في بلاد البائع (عادة). وكانت في الأساس كمبيالة زمنية تتضمن موقعاً بعيداً وتحويلاً من عملة إلى أخرى (دي روفر، ١٩٤٨م: ص ٥٣). وقد سهلت مرونة هذه الأداة عمليات التجارة الخارجية إلى حد بعيد. (لكننا سنرى أيضاً في الباب الثاني أن هذه الأداة كانت موجودة من قبل فيما يخص التجارة عبر الشرق الأوسط). وعلى الرغم من أن الكمبيالة أو الحوالة في ذلك الوقت لم تكن "قابلة للخصم ولا للتداول" (دي روفر، ١٩٤٨م : ص ٥٣)[٢٢] لكنها سمحت بحركة رأس المال بشكل لم تعرفه التجارة الأوروبية حتى ذلك الحين.

وتبين فيما بعد أن حركة رأس المال هذه كانت نعمة مختلطة بالنسبة إلى بروج، لأنها وضعت مصيرها شيئاً فشيئاً في أيدي "جمعيات أجنبية" تهتم بتحقيق أرباحها الخاصة أكثر من اهتمامها بقدرة البلد على السداد. فرأس المال الذي اجتمع لدى التجار والمصرفيين الإيطاليين كانت يقدَّم بصفة قروض إلى المنتجين المحليين إما بصورة ودائع لفترة زمنية محددة أو مقابل أسهم في السوق، فربما كانت إيطاليا في العصور الوسطى الدولة الأوروبية الوحيدة التي حظيت "باستثمارات أجنبية" (دي روفر، ١٩٤٨م: ص ٤٢). ومنذ أن بدأت صناعة النسيج الفلمنكية في التراجع، نقل الإيطاليون رؤوس أموالهم إلى استثمارات أكثر ربحية. وحين تراجعت الاستفادة من مرافق الموانئ بسبب تراكم الطمي في قناة سلوس،[٢٤] نقلوا مقصدهم – وبالتالي مكاتب وكلائهم شرقاً إلى أنتويرب، وهي ميناء أفضل يلائم السفن ذات الغاطس العميق ويتمتع بموقع استراتيجي يسهّل السيطرة على طرق التجارة البرية التي لم تعد تمر بفرنسا، بل عبر ألمانيا (برولیه وكريبكس Brulez and Craeybeckx، ١٩٧٤م).

وباء الطاعون
The Black Death

حدث هذا الانتقال الأخير تقريباً في أعقاب تفشي وباء الطاعون الكاسح الذي دمر كل طرائق التعامل المعروفة. صحيح أن عدد السكان الفلمنك توقف عن النمو بسبب كوارث طبيعية أخرى في القرن الرابع عشر وبالأخص في فترة المجاعة بين عامي ١٣١٦م – ١٣١٧م، لكن أياً من هذه الكوارث لم يكن بفداحة هذه الآفة التي وصلت إلى فلندرة من آسيا الصغرى عن طريق جنوة في منتصف القرن الرابع. وتعجز الكلمات عن وصف مدى تأثير هذا الوباء في مسيرة تاريخ العالم.[٢٥] ففي الفترة بين ١٣٣٠ و١٣٤٠م تقريباً وصل عدد سكان أوروبا إلى ٨٠ مليون نسمة، مات منهم ٢٥ مليونا في السنتين الأوليين من الوباء (سيبولا، ١٩٧٦م: ص ١٤٦) وحين عاد إلى الظهور من جديد قضى على عدد آخر من السكان، إذ تدنى عددهم إلى مستويات دنيا بعد عام ١٤٠٠م وتقلص سكان أوروبا بنسبة ٥٠-٦٠٪ عما كان عليه قبل الوباء (رسل، ١٩٧٢م : ص ٢٣). ويستنتج بوستان Postan (١٩٥٢م: ص ص ٢٠٤-٢١٥) بعد دراسته لجميع العوامل المؤثرة في الكساد الاقتصادي الذي حل بأوروبا في أواخر القرن الرابع عشر، أن السبب الرئيس في الكساد هو الانخفاض الشديد في عدد السكان الذي نجم عن الوباء.

ومع أن المناطق الواقعة على أطراف نظام التجارة العالمي (مثل إنجلترا وألمانيا) كانت أشد مناعة من الكارثة على ما يبدو، نجد أن أشد المناطق تأثراً بالوباء هي المناطق الداخلية – وبالأخص إيطاليا وفرنسا وفلندرة حيث كانت معدلات الوفيات مرتفعة جداً بحيث استدعت إنشاء مقبرتين جديدتين في بروج عام ١٣٤٩م، إذ تراكمت الجثث في شوارع إيبر بين عامي ١٣٥٠ و١٣٥٢م، وازداد عدد اليتامى في مدينة جنت زيادة كبيرة (بلوكمانز، ١٩٨٣م: ص ص ٧٤–٧٥). ففي عام ١٣٤٠م كان عدد سكان بروج يتراوح بين ٣٥٠٠٠ و٤٠٠٠٠[٢٦] لكنه تراجع بشكل حاد في منتصف القرن، أما الزيادة

الطبيعية في عدد السكان فقضت عليها عودة الوباء المرة تلو الأخرى بين ١٣٦٠-١٣٦٢ و١٣٦٨ - ١٣٦٩ و١٣٨٢ - ١٣٨٤ و١٤٠٠ - ١٤٠١ و١٤٣٨ - ١٤٣٩ و١٤٥٦ ١٤٥٩م (بلوكمانز، ١٩٨٣م: ص ٧٥). وما كاد القرن الخامس عشر ينتصف حتى كان عدد السكان قد تجاوز ما كان عليه قبل الوباء بقليل. لكن العصر الذهبي لزيادة السكان في بروج وجنت ومدن فلندرة الأخرى انقضى إلى غير رجعة. وحين ظهر الفرج، ظهر في مكان آخر. وبالفعل، ما كان من الضروري أن تتسع حدود بروج وجنت إلى أبعد ما كانت عليه في العصور الوسطى حتى فترة نموها في العصر الحديث.

العبر المستخلصة من قصة فلندرة

Lessons from The Case of Flanders

كانت العوامل الأساس التي أدت إلى انحدار بروج وجنت عوامل طبيعية، ووبائية، وسياسية، واقتصادية، ومن الصعب أن نرى كيف كان للسياسة أن تتجنب أياً منها. لقد جاءت الضربة القاصمة لبروز بروج في القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر على مسرح النظام العالمي من أحداث طبيعية مثل تراكم الطمي في منافذها إلى البحر وتناقص عدد سكانها بسبب تفشي الطاعون. ولو كانت هذه هي المشكلات الوحيدة لما كانت قاتلة. فاليوم هناك قناة عميقة تصل بروج ببحر أبعد مما كانت في القرن الخامس عشر حين توقفت كل عمليات الشحن البحري. كما أن أماكن أخرى، وبالأخص الموانئ الإيطالية، عانت من تفشي الوباء في ١٣٤٨-١٣٤٩م وشهدت معدلات وفيات أعلى من فلندرة، لكنها نهضت من جديد وتابعت دورها في التجارة الدولية على مدى قرون عدة. فهذه العوامل لم تكن مدمرة في حد ذاتها.

لقد كان للمتغيرات السياسية والاقتصادية على ما يبدو أعمق الأثر. ويمكن تلخيص هذه المتغيرات قبل الاعتمادية بالمفهوم الحديث بأنها فتّت تدريجياً في عضد صناعة النسيج التي كانت عماد رفاهية فلندرة، وقضت على أعمال سوق المال التي

حلت محلها بمرور الزمن. فصناعة النسيج كانت تعتمد في توفير المواد الخام، ولاسيما الصوف، على مصادر خارجية تسيطر عليها قوة سياسية مستقلة. وكان باستطاعة إنجلترا حرمان فلندرة من الصوف متى شاءت، وقد تطورت فيما بعد إلى حد مكنها من الاستفادة من الصوف داخلياً، وأن تضارب منافستها التي كانت تزودها بالمواد الخام بالماضي. وبالإضافة إلى ما تقدم فقدت مدن النسيج تدريجياً سيطرتها على تسويق منتجاتها – بشكل جزئي في البداية حين تمركز هذا النظام في بروج، ثم بشكل كامل بعد أن حل الإيطاليون محل التجار وأصحاب المصارف في بروج في عمليتي تصدير المنسوجات الفلمنكية وتسويقها. (انظر الشكل رقم ٣ الذي يبين أن القماش الفلمنكي كان يسافر إلى مسافات أبعد من التجار الفلمنك).

كانت رؤوس الأموال التي تجمعها الشركات الإيطالية تعطى إلى الصناعات المحلية على شكل قروض لتمويل عمليات الشراء مقدماً، لكن حين بدأت صناعة النسيج تعاني من المصاعب، أصبحت رؤوس الأموال حرة في المضي قدماً. كما أصبح تجار بروج وكلاء "سلبيين" يحاولون دون جدوى متابعة أفعال الإيطاليين "متعددي الجنسية" الذين ما فتئوا يتحكمون في القرارات ويسيطرون على النتائج. فالشركات متعددة الجنسية معروفة بسرعة انتقالها، كما نعرف من تقسيم العمل الدولي اليوم، فهي حرة في نقل استثماراتها إلى حيث اليد العاملة رخيصة، وتكاليف النقل منخفضة، والعائدات أعلى.

وهكذا قضت الاعتمادية على الرأسمالية الصناعية المتطورة التي نمت بشكل واعد جداً في فلندرة في القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر. وحتى لو لم يجف الميناء، فإن قدرات البروجيين على الإبداع جفت. صحيح أن دور الكومبرادور، أو الوكيل المالي، أسهم في إطالة أمد الرفاهية، لكنه لم يستطع الصمود وحده؛ فقد كان يعتمد على الإيطاليين بصفتهم صانعي القرار الحقيقيين، ولم يكتف هؤلاء بلعب دور الوسيط في عمليات التجارة الخارجية وحسب، بل كانوا يقررون توقيت الاستثمارات ويحددون مكانها أيضاً.

الشكل رقم (٣). التوسع الاقتصادي لبلجيكا: طرق التجار والمنتجات (بالاعتماد على دوهيرد).

وهنا ننتقل إلى دول المدن الإيطالية التي لعبت دوراً أساساً في صنع المراكز التجارية في أوروبا والقضاء عليها وفي ربطها بنظام التجارة العالمي المتحمور حول شرقي البحر المتوسط وما وراءه. والفصل الرابع يتناول اثنتين من هذه الدول — المدن وهما جنوة على ساحل إيطاليا الغربي والبندقية على ساحلها الشرقي.

الهوامش
Notes

١- تشكلت بلجيكا الحديثة في القرن التاسع عشر من اتحاد هش بين الناطقين بالفرنسية في المناطق الجنوبية والناطقين بالفلمنكية في المناطق الشرقية والشمالية. ولا تزال بلجيكا حساسة إلى أبعد الحدود تجاه الرموز العفوية القومية والمنافسات الاجتماعية والاقتصادية الداخلية. وقد عانت من مشكلات الاختيار بين الأسماء الفرنسية والفلمنكية للمدن. وفي النهاية قررت الموازنة بين الطرفين واستخدام الأسماء المعروفة على نطاق دولي: من هنا كانت الأسماء الفلمنكية جنت Ghent بدلا من جاند Gand والاسم الفرنسي بروج Bruges بدلا من بروهه Brugge.

٢- في منتصف القرن الثالث عشر، كان عدد السكان في كل من جنت وباريس متقاربا (٨٠٠٠٠٠ نسمة) في حين أن عدد السكان في بروج كان أقل من ٤٠٠٠٠. ومن المهم أن نقارن هذه المدن الحقيقية بمدينة تروي Troyes التي لم يكن عدد سكانها آنذاك يتجاوز ١٥٠٠٠ نسمة (رسل Russell ١٩٧٢م). ففي أعقاب الطاعون والكساد الذي تبعه كانت جنت، التي لم يبق فيها سوى ٦٠٠٠، أصغر بكثير من باريس وأكثر من بروج بنسبة ٥٠٪ فقط (نيكولاس، ١٩٨٥م: ص ١).

٣- يرى فريس Fris (١٩٣١م: ص ٦٧) الثلث، في حين يزيد فان فيرفيكه van Werveke ذلك إلى النصف. ويبدو أن هذه الأرقام تخص الفترة التي أعقبت تدهور

الوضع الاقتصادي. لكن نيكولاس أكثر دقة، إذ يعتقد أنه في حوالي ١٣٥٦ - ١٣٥٨م كان ما يقرب من خمسي السكان يمارسون إنتاج النسيج، لكن النسبة تراجعت إلى الربع فقط في أواخر القرن الرابع عشر (اتصال شخصي). انظر نيكولاس (١٩٨٥م: ص ١)، وهو يقدر أن ما بين نصف وثلثي القوة العاملة في جنت كانت تعمل في إنتاج النسيج في القرن الرابع عشر.

يجب ألا نفترض أن القوة العاملة في المنسوجات كانت محصورة في الرجال وحسب. فمن غير الممكن أن يحقق الإنتاج ذلك المستوى العالي من غير إسهام النساء والأطفال في العمل وبنسبة كبيرة. كان القرن الثالث عشر فترة تأسست فيها مختلف أنواع *الأخوانية* Beguinages التي كانت مؤسسات تؤوي العازبات غير الملتزمات دينيا، ويعشن حياة علمانية. وكثير منهن كن يكسبن قوتهن من العمل في النسيج. كما أن الكلمة الإنجليزية Spinster (العانس) مشتقة مباشرة من العمل في النسيج الذي كن يمارسنه. أما كلمة pileuse (الغزّالة) الفرنسية فمشتقة من fil (خيط) وربما من كلمة fille (امرأة غير متزوجة). وواضح جداً أي نوع من العمل كانت النسوة العازبات يمارسنه في اقتصاد العصور الوسطى في أوروبا.

٤- انظر هابكه Haepke (١٩٠٨م). كانت هذه نقطة نزاع بين مؤرخي العصور الوسطى. والجدل يتمحور حول التعريفات. فالمؤيدون، ومعظمهم من البلجيكيين، يؤكدون، ربما بحماسة مبالغ فيها، الدور البارز لبروج. ويقول هنري بيرين Henri Pirenne إنها كانت أهم من البندقية في التجارة الدولية في العصور الوسطى. لكني أتفق مع برودل (١٩٨٤م : ص ١٠١) في أن هذا القول مغرق في التطرف.

٥- يبدو أنه لا بروج ولا جنت تنطبق عليهما هذه الصورة المتواضعة، على اعتبار أن بروج لم تستمر في كونها مكاناً دينياً، ومن الممكن تتبع أصل جنت إلى القرن السابع وحسب حين تأسس ديران في موقعها. انظر بيرين (بدون تاريخ: ص ١٩)

٦- انظر فان فيركه (١٩٥٥م: ص ٥٥١). مع أن جنت ذكرت بالتأكيد على أنها "برطوس portus" في ذلك التاريخ المبكر، إلا أن بروج لا يمكن أن تكون كذلك حتى وقت لاحق. وبحسب بيرين (ج ١ ، ٩ ، ١٩٢٩م: ص ص ١٨٨–١٨٩)، فإن *البرطوس portus* هو رصيف لنزول المسافرين من السفن، ومركز تجاري على خليج أو نهر تتجمع فيه مستعمرات التجار الأجانب والحرفيين عادة تحت حماية إحدى المستوطنات الكنسية. فصورة المتمدنين الأوائل على أنهم أجانب أو غرباء التي رسمها بيرين وقبله كثير من المؤرخين (انظر بالأخص جانشوف Ganshof ١٩٤٩م: ص ص ٩٦ - ٧٠ الذي يذكر تجار القوافل المغامرين) تعرضت للنقد مؤخرا لأنها تنفي صفة المحلية عن هذه العملية بصورة لا داعي لها. فكلمة portus هي مصدر كلمة poorter في الفلمنكية التي تعني البورجوازي (بمعناها الأصلي – أي المقيم الحرفي قرية أو مدينة).

٧- ومرة أخرى تبدو بروج أقل أهمية من جنت. فمع أن أول ذكر لمدينة جنت باعتبارها مركزا تجاريا (pagus) لم يرد حتى الربع الثالث من القرن التاسع، فإن شارلمان حسبما يقال زار جنت في عام ٨١١م ليفتش الأسطول الذي كان قيد البناء هناك لحماية المنطقة من الغزاة النورمانديين أو الفايكنغ الشماليين (فان فيرفيكه، ١٩٤٦م: ص ١٥). ومن المحتمل جدا أن يكون ميناء بروج قد أسس (أو أعيد بناؤه) ليخدم هدفا دفاعياً مماثلاً.

٨- للاطلاع على التفاصيل، انظر كارليه J. J. Carlier (١٨٦١-١٨٧٢م: ص ص ١٢٧ – ١٣٩). ويعطينا فان هوت van Hootte (١٩٥٣م: خاصة ١٨٣) دورة السوق في القرن الثالث عشر (أقدم ما يمكن استعادته) كالتالي: إيبر Yebers من ٢٨ فبراير حتى ٢٩ مارس؛ بروج من ٢٣ إبريل حتى ٢٢ مايو؛ تورهوت Thorhout من ٢٤ يونيو ٢٤ يوليو؛ ليل من ١٥ أغسطس حتى ١٤ سبتمبر؛ ومسين من ١ أكتوبر حتى ١ نوفمبر.

٩- في وثيقة ذكرها فان فيرفيكه (١٩٤٦م: ص ١٨) يذكر أن الصوف كان يأتي بوساطة القوارب النهرية إلى السوق في جنت.

١٠- صحيح أن وظيفة الأسوار في العصور القديمة كانت لحماية المستوطنات من الأخطار الخارجية، لكن السور في العصور الوسطى اتخذ معنى مختلفا، فقد كان يدل على حدود مدينة مستقلة عن الأرض التابعة للملكية أو السلطة الإقطاعية.

١١- إنني غير راض عن تفكيره هنا بشأن المسببات، على اعتبار أن الخط يسير في الاتجاه المعاكس. ففي أثناء الانتعاش الذي حدث في القرن الحادي عشر، كان هناك تقدم هائل في التقنيات الزراعية، ومنها قدرة فلندرة على توفير الري والصرف باستخدام القنوات مما حسن من خصوبة المساحات المزروعة. أما الطواحين والنواعير التي ربما جاءت من الشرق الأوسط، فقد حسنت هذه العملية في القرن الثاني عشر (برودل، ١٩٧٣م: ص ص ٢٦١-٢٦٨؛ سيبولا، ١٩٧٦م: ص ص ١٦٢-١٦٨). هذا الإنتاج الزراعي المحسن كان يؤمن حاجات عدد كبير من السكان، حتى إنه سمح لعمال الفائض بالهرب من التزاماتهم الإقطاعية. وقد هاجر هؤلاء العبيد الفارون من الإقطاعيات إلى المستوطنات المدنية مع أنها لم تكن تتمتع بالحكم الذاتي.

١٢- للتعرف على رؤية جيدة لأوضاع أولئك التجار في إنجلترا، ولو أنه لفترة متأخرة نوعا ما حين كانوا معروفين أكثر، انظر ت. هـ. لويد Lloyd (١٩٨٢م). وحول الشؤون الإنجليزية، انظر مور Moore (١٩٨٥م).

١٣- يجب عدم المبالغة في تصوير المدن – الدول الإيطالية في الوساطة بين بلجيكا والمشرق. فقد كان لفلندرة صلاتها الخاصة أيضاً. فالكونت روبرت الفريزياني Robert the Frisian انطلق من جنوة عام ١١٩٠م في الحملة الصليبية الثالثة، كما شارك بولدوين التاسع Baldwin IX الفلاندري في الحملة الصليبية الرابعة التي تحولت عام ١٢٠٤م للاستيلاء على القسطنطينية الكونت الفلاندري فقد وقع الاختيار عليه لكي

يكون أول إمبراطور لاتيني في القسطنطينية؛ وظل ورثته يلحقون اسم القسطنطينية بأسمائهم، مع أن بولدوين التاسع فقد حياته في إحدى الحملات بعد ذلك بفترة وجيزة.

١٤- لم تكن كلمة *patriciate* متداولة آنذاك، بل هي كلمة استعملها المؤرخون المحدثون للمقارنة بين السلف الروماني والأغنياء من التجار البرجوازيين (فان فيرفيكه، ١٩٤٦م: ص ص ٣٠-٣١) الذين حكموا مدن الفلندرة الفرنسية والذين سيطروا على أعداد متزايدة من الأيدي العاملة البروليتارية. ولا شك في أنه كانت هناك فوارق مهمة فيما يخص العهد الروماني القديم واليوم. وقد اعترض ديفيد نيكولاس بشدة في معرض نقده لمسودة سابقة لهذا الفصل، وأنا أشكر له فضله في هذا، لأني أفرض فئات طبقية على مدينة جنت في القرن الرابع عشر، وهو ما اعترض عليه في كتابه الصادر عام ١٩٨٥م. صحيح أنه يبقى المصدر المهم في حقل عمله والذي استقيت منه في الواقع كثيرا من استنتاجاتي، إلا أني أرى أن المقاومة الآلية التي يبديها المختصون في العصور الوسطى لمفهوم الطبقات بوصفه مفهوماً تركيبياً يمنعهم من العثور على سوابق للرأسمالية الحديثة. وهذا في نهاية الأمر موضوع يحتمل المزيد من البحث.

١٥- من النتائج غير المتوقعة للفوضى، احتراق برج الناقوس في مجلس مدينة بروج مما أدى إلى إتلاف ميثاق المدينة لعام ١٢٤١م وكثير من الوثائق التي يحتاج إليها المختصون في أعمال الأرشيف لإعادة بناء تاريخ المدينة قبل ذلك التاريخ.

١٦- إن خير كتاب على الإطلاق حول هذا الموضوع المعقد والمثير هو كتاب ديفيد نيكولاس "*التوترات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في فلندرة في القرن الرابع عشر* *Town and Countyside: Social, Economic, and Political Tensions in*

Fourteenth Century Flanders" (١٩٧١م) الذي يخيل إليه القارئ المهتم في التاريخ القديم للحركات العمالية.

١٧- دهشت من بعض أوجه التشابه مع أمريكا في القرن العشرين حين انتقلت صناعة المنسوجات والأحذية نحو الجنوب سعياً لتخفيض أجور اليد العاملة.

١٨- هذه الجمعية من نقابات التجار التي سميت خطأ *Hanseatic League* ومعناها الحرفي "جمعية الجمعية" من مختلف المدن الألمانية كانت تقوم بعملها بصورة غير رسمية قبل القرن الرابع عشر بوقت طويل (لوبيز، ١٩٧٦م: ص ص ١١٤ — ١١٥؛ برودل، ١٩٨٤م: ص ١٠٢؛ روريغ، ١٩٦٧م: ص ص ٣٧-٣٩). كانت أشبه بجمعية المدن السبع عشرة (نشطة في أسواق شمبانيا ويرأسها رئيس نقابة التجار في جنت) من حيث إنها كانت تجمعا يحمي تجاره ويضع الشروط العامة للتجارة وشروط جمعية لندن (التي ترأسها بروج) وهدفها استيراد السلع وبالأخص الصوف من الخارج. انظر العمل الكلاسيكي الذي وصفه دولينغر Dollinger (١٩٦٤م، الترجمة الإنجليزية، ١٩٧٠م).

١٩- انظر دي روفر (١٩٦٨م) ربما يعود أصل كلمة "بورصة Bourse" إلى بروج. وكما سنرى، فإن التجار الأجانب غالباً ما كانوا ينزلون في فنادق خاصة تقوم بأعمال إضافية مثل التوسط بين التجار الإيطاليين والمضيفين الفلمنك. واعتباراً من منتصف القرن الثالث عشر، كان هناك فندق كهذه على مقربة من مركز المدينة تحت إدارة أسرة فاندر بورس التي أعطت اسمها إلى الفسحة المفتوحة خارجه (وقد سميت بالفرنسية ساحة البورصة place de Bourse) وكان التجار الإيطاليون يتجمعون في تلك المنطقة، كما أن خانات التجار الجنويين، والفلورنسيين والبنادقة اجتمعت هناك فيما بعد (وما زالت هناك). وكانت معاملات أولئك التجار — المصرفيين كثيفة حتى إن تلك المنطقة عرفت باسم "سوق التبادل"، ومن هنا جاءت كلمة "البورصة." انظر فرانز بايرز

Frans Beyers، *"Da familie vaner Bourse de oosprong van de handelsbeurzzen"* التي اطلعت على طبعة منها في بروج، لكنها غير معروفة بالمصدر؛ انظر أيضاً فان فيرفيكه (١٩٤٤م: ص ٤٧) لكن من الممكن أن تطور الكلمة كان بترتيب معكوس على اعتبار أن كلمة *purs* بالإنجليزية القديمة كانت أصل اسم العائلة ذاته. وأنا مدين إلى ستنشكوم A. Stinchcombe في لفت انتباهي إلى هذه النقطة.

٢٠- من اللافت للنظر مقارنة هذا بالمنظمة التي شكلها التجار الإيطاليون الذين يزورون أسواق شمبانيا. وقد شكل التجار الإيطاليون، وهم يحاولون أن يحذو حذو المدن السبع عشرة التي رأوها هناك، منظمة مماثلة أسموها جامعة اللومبارديين والتسكانيين التي توسع اسمها عام ١٢٨٨م ليشمل الإيطاليين آخرين (لوران، ١٩٣٥م: ص ١١٩). لكن حاجة التجار المؤقتين كانت مختلفة عن حاجة المقيمين بصفة دائمة.

٢١- من أشهر هؤلاء العملاء كان فرانسيسكو دي بلدوتشي بيجولوتي Francesco de Balducci Pegolotti الذي كان يعمل في شركة بردي في فلورنسا ومقيم في فلندرة ثم في إنجلترا في أوائل القرن الرابع عشر (دي روفر، ١٩٤٨م: ص ٣٣). وسوف نعود إليه في فصل لاحق حين نبحث في تجارة أوروبا مع بلاد الشام، لأن دليله للتجار هو الذي يشكل وثيقة فريدة وثمينة لدراسة التجارة في العصور الوسطى.

٢٢- حسب ما أورده دي روفر (١٩٨٤م: ص ص ٩٩-١٠٤) فإن اللومبارديين والكاهورسيين ظهروا في فلندرة للمرة الأولى في نهاية القرن الثالث عشر تقريبا مع غيرهم من الإيطاليين. ويعود تاريخ أول المواثيق التي منحت للومبارديين إلى عام ١٢٨١م؛ وكانت الرسوم التي اضطروا إلى دفعها لقاء السماح لهم بممارسة مهنتهم باهظة.

٢٣- لم ينشأ الحق في تظهير الصك لشخص آخر (أي السماح بشراء الصكوك وبيعها) إلا في مطلع القرن السابع عشر في أنتويرب (دي روفر، ١٩٤٨م: ص ٣٥).

٢٤- في أواخر القرن الرابع عشر كانت الظروف في ميناء سلوس Sluis سيئة إلى أبعد الحدود حتى إن السفن الضخمة اضطرت إلى الرسو عند جزيرة خارج المرفأ وإلى نقل حمولتها إلى سلوس بالصنادل. (فان هوت، ١٩٦٦م: ص ٤٠).

٢٥- انظر جوتفريد Gottfried (١٩٨٣م) للاطلاع على رواية حديثة، ومكنيل (١٩٧٦م) للإطلاع على بحث أشمل لأسبابها ونتائجها.

٢٦- هذا التقويم الذي يظهر في معظم المصادر عن المدينة، مشتق من لائحة بأسماء الأشخاص المسجلين في المليشيا آنذاك، مضروبا بنسبة المليشيا إلى غير المليشيا بين السكان. لذلك فهي أولية وغير حاسمة. انظر دي سميت De Smet.